

إحياء التراث البلاغي وأثره في الخطاب النقدي المعاصر

Title of the intervention: revival of the rhetorical heritage and its
impact on modern critical discourse

د/ صالح تقابجي

جامعة البليدة (2)

تاريخ القبول: 2018/07/18

تاريخ الاستلام : 2018/05/01

ملخص:

يلجأ بعض اللغويين والنقاد العرب إلى طريقة الإحياء والمجاز لمعالجة المصطلحات الرائجة في المناهج اللسانية المعاصرة بمصطلحات تراثية، والتي كانت في غالبيتها مستوحاة من التراث النقدي والبلاغي القديم، وذلك باستقراء الكنوز التي خلفها علماؤنا القدامى؛ لاكتساب مصطلحات معرفية واستخدامها في التعبير عن المفاهيم الجديدة؛ وتتمثل هذه الآلية الإجرائية في " ابتعاث اللفظ القديم، ومحاكاة معناه الموروث بمعنى حديث يضاهيه"¹.

وبما أن المصطلح النقدي يعدّ الآلية الإجرائية المثلى لتشكيل تقنيات تحليل النصوص الأدبية، فكيف السبيل إلى توحيد المصطلح النقدي العربي وضبطه في ظل غياب الحوار المستمر والفعال بين الباحثين من جهة، وفقدان العمل الجماعي في الوطن العربي من جهة أخرى؟ فرغم كل الجهود المبذولة في هذا المجال، فإن اللغة العربية لم تستفد كلياً من تلك القدرات المتاحة لديها، ثم إن الأمر لا يحتاج إلى وقفات فردية فقط، بل إلى جهد يشترك فيه الجميع لاستنباط مصطلح نقدي عربي أصيل، يتميز بصيغة واحدة ويتسم بدلالة واضحة؛ بحيث تكون له القدرة على مسايرة المعطيات الإبداعية المعاصرة، وقد يحدث ذلك إذا تعاضدت جهود النقاد واللغويين العرب بغرض الوصول إلى بلورة مصطلحات نقدية؛ ولعلها تكون المخلص من التبعية الثقافية للغرب التي يعيشها المثقف العربي عموماً.

الكلمات المفتاحية: إحياء التّراث - التّشاكل - الشّعريّة - الانزياح - التّداوليّة

Keywords: revival of heritage - morphology - poeticism -
displacement - deliberative

Abstract

Some Arab linguists and critics resort to the method of revival and metaphor to deal with the popular terminology in the contemporary linguistic curricula in terms of heritage, most of which were inspired by the ancient monetary and rhetorical heritage, by extrapolating the treasures left by our ancient scholars to acquire knowledge terms and use them to express new concepts. The procedural mechanism of "conveying the old pronunciation and imitating its inherited meaning in a modern
."sense that is similar to it

Since the term monetary is the best mechanism for the formation of techniques for the analysis of literary texts, how to unify the Arab monetary term and control in the absence of continuous and effective dialogue between researchers on the one hand, and the loss of collective action in the Arab world on the other?

مقدّمة:

لو عدنا إلى التّراث العربيّ لوجدنا الكثير من المصطلحات الرائجة في مجال الدّرس اللّسانيّ العربيّ الحديث قد تناولها علماؤنا القدامى بالدّراسة والبحث، وخصّصوا لها مؤلّفات تحمل في طياتها تعريفات وتحاليل بمنهجية العصور السّالفة؛ ومن المصطلحات

اللّسانيّة التي شاعت عند العرب قديما، نجد: النّحو، علم اللّغة، فقه اللّغة، البلاغة، وغيرها...؛ والملاحظ في كتب التّراث العربيّ الخاصّة بالدراسات اللّغويّة تداخل بعض المصطلحات من حيث المفاهيم؛ ومنها: (اللّغة)، و(علم اللّغة)، و(فقه اللّغة)، إذ اشتركت في دلالاتها على نوع معيّن من البحث اللّسانيّ، وتردّت هذه الظّاهرة عبر تاريخ الدّرس اللّغويّ العربيّ قديما وحديثا؛ فكان يطلق مصطلح (لغويّ) على من يقوم بجمع مفردات اللّغة، ورواية ما يحفظ عن العرب، كالأصمعي مثلا؛ كما في قول السيوطي: "اعلم أنّ اللّغويّ شأنه أن ينقل ما نطقت به العرب، ولا يتعدّاه، وأمّا النّحويّ فشأنه أن يتصرّف فيما ينقله اللّغويّ، وقيس عليه"²؛ وهو المصطلح نفسه (لغويّ) ما يطلق حديثا على كلّ من يبحث في المجال اللّغويّ.

1- إحياء المصطلح التّراثي :

وتتمثّل هذه الآلية الإجرائيّة في "ابتعاث اللفظ القديم، ومحاكاة معناه الموروث بمعنى حديث يضاهيه"³، وغالبا ما يلجأ اللّغويّون والنّقاد العرب إلى هذه الخاصيّة (إحياء التّراث) باستقراء الكنوز التي خلفها علماؤنا القدامى؛ لكسب مصطلحات معرفيّة واستخدامها في التّعبير عن المفاهيم الجديدة.

ويبدو أنّ هذه الطّريقة (إحياء التّراث) لم تلق استحسان بعض النّقاد المعاصرين على غرار ما ذكره الفاسي الفهري، بأنّه يجب "الابتعاد عن استعمال المصطلح المتوقّر القديم في مقابل المصطلح الدّاخل؛ لأنّ توظيف المصطلح القديم لنقل مفاهيم جديدة من شأنه أن يفسد علينا تمثيل المفاهيم الواردة، والمفاهيم المحليّة على حد سواء، ولا يمكن إعادة تعريف المصطلح القديم، وتخصيصه إذا كان موظّفا"⁴.

بينما شهد هذا الإجراء استحسان ثلّة أخرى من النّقاد العرب المعاصرين على غرار عبد المالك مرتاض، الذي استطاع أن يبعث الكثير من المصطلحات التّراثيّة، وجعلها كمقابلات للمفاهيم الغربيّة الحديثة؛ وخاصّة في مجال النّقد السّيميائيّ كلفظ "(خطاب) الذي جعله بديلا لمصطلح (Discours)"⁵.

1/1- توليد المصطلح السّيميائيّ عن طريق الإحياء :

رغم الجهود المبذولة من أجل إحياء التّراث الفكريّ والثّقافيّ العربيّ، إلّا أنّه لا زال هناك الكثير من الكنوز المعرفيّة - المدّخرة منها، والمهملة التي لم يكشف عنها بعد- التي تحتاج إلى بحث وتنقيب، ودراسة معمّقة كي تبعث من جديد؛ ومن بين المصطلحات السّيميائيّة التي أوجدها النّقاد العرب المعاصرون بتوظيف هذه الآلية -إحياء التّراث- نجد :

أ- مصطلح المشاكلة (Isotopie): يعدّ من مصطلحات البلاغة العربيّة القديمة، "وهي أن يذكر الشّيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته، كقوله تعالى: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}*؛ أي أهملهم، فذكر الإهمال هنا لفظ التّسيان لوقوعه في صحبته"⁶، وقد ذكر "شعر لأبي الرقعم قال فيه:

أَصْحَابُنَا قَصَدُوا الصَّبُوحَ بِسَحْرَةٍ وَأَتَى رَسُولُهُمْ إِلَيَّ خَصِيصًا
قَالُوا اقْتَرَحْ شَيْئًا نَجِدَ لَكَ طَبَخَةً قُلْتُ اطْبَخُوا لِي جُبَّةً وَقَمِيصًا

أي خيطوا لي جبّة وقميصا، فذكر الخياطة بلفظ الطّبخ لوقوعه في صحبة طبخ الطّعام لأنّه كان فقيرا، ليس له كسوة تقيه من البرد"⁷.

وفي الدّرس السّيميائيّ جعل لفظ (المشاكلة) كبديل للمصطلح الغربيّ (Isotopie)، كما وضعت بجوار هذا اللفظ (المشاكلة) كلمات أخرى على سبيل التّرادف، منها: "التّشاكل"⁸.

ومصطلح "تشاكل" (Isotopie) : مفهوم من المفاهيم السّيميائيّة التي أدخلت في مجال النّقاد المعاصر كآلية إجرائيّة، حيث استقدمه (غريماس) من حقول الفيزياء والكيمياء، كما وضّحه عبد المالك مرتاض، بقوله: "إنّ مصطلح (تشاكل) اسم مشتقّ منحوت في أصله من كلمتين إغريقيّتين؛ هما (ISO) التي تعني التّساوي، و(Topos) التي تعني المكان؛ ليصبح في الأخير الاسم يدلّ على المكان المتساوي، أو تساوي المكان، ثمّ أطلق للتّعبير على الحال في المكان، أي في مكان الكلام"⁹، فدلالة هذا المصطلح عند (غريماس) تقترب من ازدواجيّة اصطلاحيّة: هي: (Isotopie)، و(Isomorphisme)؛ أي تشابه وتناظر"¹⁰.

فقد ارتضى عبد المالك مرتاض مصطلح (تشاكل)، كبديل عن مصطلح (غريماس) (Isotopie)، واستخدمه في مؤلفاته الخاصة بمجال السيميائيات نظيراً وتطبيقاً؛ غير أنه يؤثر مصطلحات أخرى مستوحاة من التراث، كلفظ (مشاكلة)، حيث يقول: "إنَّ المشاكلة، أو التشاكل فرع من فروع السيميائية، وغايتها تتمخض لخدمة الدلالة عبر الجملة، وبالتالي عبر النص، وبالتالي عبر الخطاب الأدبي؛ فهي إذن تستخدم في الكشف عن العلاقات الدلالية بواسطة الإجراءات التحليلية...، والتشاكل يتكوّن من مكرّرات itérativités، أو متواترات عبر سلسلة تراكيبة، كما يتألّف من أصناف سيميائية تحفظ للخطاب الملفوظ تناسقه"¹¹.

وفي سياق آخر فاضل عبد المالك مرتاض بين جهود (غريماس)، وما وجد في موروثنا البلاغي والنقدي معتقداً أنّ البلاغيين العرب القدامى "كانوا قد حاولوا الإلمام بهذه المسألة، ولكنهم حاموا من حولها، ولم يقفوا عليها قطّ على النحو الذي وقع به عليها (غريماس)، حيث ظلّوا ينظرون إليها على أساس أنّها ظاهرة أسلوبية كلية، ولكن من حيث هي جزئيات، وأطراف متشكّنة تحت مصطلحات مختلفة أهمّها: الطّباق، المقابلة، اللّف، النّشر، والجمع"¹²؛ وأردف قائلاً: "فإذ كانت محاولة هؤلاء تقوم على التشاكل النّحوي -وهو من فروع التشاكل السيميائي، كما ورد في تنظيرات (غريماس)-؛ فإنّ هناك ملامح ترقى إلى ما فوق ذلك هنا، وهناك في التراث العربي الرّاخر"¹³؛ لأنّ التشاكل بأنواعه -الذي اهتمدى إليه (غريماس)- لا يعدّ أن يكون "تجسيدا لمساع ذهنية كانت تتردّد على ألسنة البلاغيين، وكلّ ما في الأمر أنّ المساعي المعاصرة تتسم بتقنيات أدقّ، ومنهجية أكثر صرامة"¹⁴.

فقد اهتمدى الباحث إلى مصطلحات (تشاكل) و(مجانسة) مقتفياً آثار البلاغيين العرب القدامى، وأضاف تعريفاً آخر (للتشاكل)، وهو: "تشابه العلاقات الدلالية عبر وحدة ألسنية إمّا بالتكرار، أو بالتماثل، أو التعارض سطحا وعمقا، وسلبا وإيجاباً"¹⁵؛ كما حاول أن يصوغ مصطلحا آخر -عبر آلية التعريب- مقابلاً للفظ (isotopie)، فسّمّاه (إيزوطوبية)، ثمّ عاد مرة أخرى إلى التراث، فاستخرج عدّة مفاهيم؛ مثل: "(الخبر والإنشاء، ثمّ الطّباق والمقابلة)، كأسماء مثيلة للتّباين (Hétéropie)"¹⁶. كما عرّف مصطلح (التّباين) بقوله: "أمّا اللاتشاكل، فيقوم في هذا الكلام على أساس التّأليف بين أطراف متناقضة، وهو ما يمكن أن نطلق عليه (التّباين)"¹⁷؛ ثمّ حاول استجلاء الفرق الموجود بين

المصطلحين (التشاكل)، و(اللاتشاكل) أو (التباين)؛ فقال: "إذا كان التشاكل يرصد العلاقات المتقاربة، أو المتشابهة بين معاني نصّ من النصوص، ونسوج خطاب من الخطب؛ فإنّ التباين يرصد العلاقات المتنافرة، أو المتناقضة المتعارضة التي تفضي فيما تفضي إليه في حقيقة الأمر، إلى تحديد الدلالة السيميائية للمعنى عبر انصهارها، أو أثناء انصهارها في مساحة النص المطروح للتحليل المجهري، أو التشبيه به"¹⁸.

ب- مصطلح الشعريّة (Poétique) :

تتداخل دلالة هذا المفهوم كغيره من المصطلحات السيميائية، فمن النقاد من يرى أنّه مستنبط من اللغة العربيّة عن طريق آلية الاشتقاق، أي من مادة (ش ع ر)؛ كما قال عبد السلام المسدي: "فهذا الجذر الثلاثي في دلالاته حول كلّ ما له ارتباط بالحسّ من حيث هو خامس خمسة لم نجد ما نعبر به عنها إلا لفظة الحواس ذاتها؛ ولا ينفكّ عن هذا المعنى التأثيليّ ما تدلّ عليه المادة اللغويّة في جدولها الكبيرين، بأيّ تقليب من تقليبات الوزن الصرّفيّ في أخذتها"¹⁹.

ولم يعرف العرب هذا اللفظ (شعريّة)، وإنّما تداول عندهم مصطلحات أخرى "تدلّ على شاعريّة الشاعر، ومنها: الشاعريّة، شعر الشاعِر، القول الشعريّ،..."²⁰. أمّا في النّقد العربيّ المعاصر فربّما يحمل لفظ شعريّة دلالة معرفيّة؛ لأنّ "اختيار هذا اللفظ كبديل مقابل (poétique)، يتولّد مفهوم دالّ على الإطار العامّ الذي ينزل فيه الأدب، فقد ظلّت اللاحقة الاشتقاقية قائمة مقام لفظ العلم؛ كما لو كان هذا اللفظ يتّجه صوب تخصيص السّمة الإبداعية بصاحبها"²¹.

والشّعريّة من المصطلحات التي أثارها الشّكلائيّون الرّوس، وقد تداول النّقاد العرب هذا المفهوم بدلالات متباينة من خلال ترجمات مختلفة؛ منها: (أدبيّة الشعّر)، (البوتيك) (الإنشائية)، و(الشّعريّة)، وفي الواقع ورد هذا المفهوم بتسميات عدّة، وصيغ مختلفة عند البلاغيّين والنّقاد العرب القدامى؛ (كالشاعريّة)، و(شعر الشاعِر)، و(القول الشعريّ)، وغيرها من الألفاظ. ومن الواضح أنّ لفظ (الشّعريّة) مستمدّ من التّراث النّقدّي العربيّ، ومن هذا المنطلق يتقاطع عبد المالك مرتاض مع بعض النّقاد العرب باختياره لمصطلحين مترادفين هما: "(الشّعريّة) و(البوتيك)؛ كبديل عن المصطلح الغربيّ

Poétique²². في حين أطلق عليها "النَّاقِد عبد الله الغدامي لفظ (بيوطيقا)"²³، و"عبد السلام المسدي (البواتيك)"²⁴.

غير أنَّ عبد المالك مرتاض يميل إلى التَّرجمة أكثر من انحيازه إلى التَّعريب، حيث تناول هذا المصطلح في بعض مؤلفاته الحداثيّة على غرار (بنية الخطاب الشّعريّ)، و(شعريّة القصيدة- قصيدة القراءة).

2- توليد المصطلح النّقديّ عن طريق المجاز:

يعدّ المجاز وسيلة هامة تستخدم من أجل توسيع المعنى اللّغويّ للكلمة، وتحميلها معنى جديداً، فقد لجأ النّقاد إلى هذه الآلية لإثراء اللّغة؛ حيث شهدت المصطلحات النّقديّة السّيميائيّة ضروبا من الألفاظ المجازيّة، نذكر منها: (الانزياح) كلفظ بديل عن المصطلح الأجنبيّ (Ecart)، والذي "سمي الفارق، والانحراف، والبعد، والفجوة؛ وهي كلمات في أصولها اللّغويّة مختلفة، لأنّ الفارق = بون، والانحراف = زيغ، والبعد = جفاء، والبعيد = ناء، والفجوة = شرح. أمّا الانزياح فهو المصطلح الأقرب إلى العدول، ولكن المصطلحات السّالفة الذّكر تعتبر مقبولة مجازيّاً"²⁵.

وفي خضمّ الجدل القائم بين النّقاد في تناولهم "للمصطلح السّيميائيّ مجازاً، فأشاروا إلى الوند الألسنيّ، والسّلم الصّوتيّ، والماء الشّعريّ، والتّقويضيّة، والمفتاح السّرديّ...؛ وغدت هذه المصطلحات موظّفة توظيفاً مكرّراً في كتاباتهم، بديلة عن المصطلحات التّاليّة: الجملة الملفوظة (الوحدة الكلاميّة)، التّفاوت اللّغويّ، العناصر الأدبيّة الجماليّة، التّفكيكيّة، ثمّ حلّت العقدة في النّص القصصيّ"²⁶.

وقد أسهمت ظاهرة توليد المعاني للألفاظ -في عصر الاحتجاج- في عمليّة التّطوير الدّلاليّ حين سدّ الباب أمام المعرب والدّخيل، بالإضافة إلى حاجة العرب آنذاك إلى اصطلاحات جديدة للتّعبير عمّا استحدث من مفاهيم؛ نحو: البريد، الهندسة، الزّنجبيل...، وفي العصر العباسيّ استعملوا لفظ المقامة للدّلالة على جنس أدبيّ أبدعه أدباء ذلك العصر، وفي العصر الأندلسيّ أطلق لفظ الموشّحات على نمط من الشّععر عرف في تلك الفترة عندهم. وفي العصر الحديث تمّ اللّجوء إلى هذه الوسيلة اللّغويّة لسدّ حاجة اللّغة

العربية من المصطلحات؛ حيث استعمل لفظ مذياع للدلالة على جهاز الراديو، والحاسوب للدلالة على جهاز الكمبيوتر، كما استعملت ألفاظ أخرى بتطوير المعنى أو بتغييره؛ نحو: الهاتف، الطيار، الثلاجة...

1/2- إيجاد معاني المصطلح السيميائي عن طريق المجاز:

أ - مصطلح الانزياح :

الانزياح أو ما يسمى بالانحراف "هو مصطلح سيميائي بديل عن لفظ (L'écart) في اللغة الفرنسية، وقد ترجمه بعض النقاد المعاصرين بمصطلح (الفجوة) و(الابتعاد)"²⁷، وأطلق عبد السلام المسدي على هذا المفهوم مصطلح "(العدول) كما هو سائد في البلاغة العربية"²⁸؛ حيث وجد عبد المالك مرتاض أنّ هذه المصطلحات ما هي "إلا مترادفات لمفهوم واحد، وهي لا ترقى في دلالتها الأدبية والجمالية، وحتى المعرفة إلى مستوى الاستعمال المتداول بين النقاد السيميائيين...؛ فمصطلح (الانزياح) ربما يظل الأيسر بين الناس، وهو الأسلم لغويًا ومعرفيًا"²⁹.

وفي كل هذه المصطلحات ما يدلّ على انحراف المتكلم أو الكاتب عن المؤلف المتداول في الاستعمال الأسلوبي إلى شيء آخر، وفي ظلّ هذا التداخل الاصطلاحيّ حول مفهوم الانزياح أضاف عبد المالك مرتاض لفظاً مماثلاً، وهو (الالتفات)؛ واستشهد بكلام الزمخشري (ت528هـ) الذي تحدّث عن الالتفات وعرف وظيفته البلاغية، بقوله: "... ولأنّ الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع، وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد..."³⁰. وقياساً على ما وجد في كتب التراث العربيّ توصّل عبد المالك مرتاض إلى أنّ الانزياح لا يقوم على مجرد الاختصار على المروحة بين استعمال الضمائر المختلفة داخل كلام واحد، ولكنّه تجاوز ذلك إلى التوسّع غير المحدود في التعامل مع اللغة الأدبية في أسلوب الكلام.

ويبقى هذا المفهوم في غاية الغموض، و"هذا باعتراف (غريماس) و(كورتيس) اللذان يزعمان أنّ هذا المفهوم ربما قد جاء من إنتاج مستعملي اللغة انطلاقاً من تأملات (سوسير)"³¹؛ غير أنّ عبد المالك مرتاض اتّكأ على آراء (أوزوالد ديكر) و(جان ماري

سشيفر)، فلاحظ أنّهما عالجا هذا المفهوم بتفصيل ووضوح؛ لأنّهما تابعا دراستها لما هو شائع في آخر التّطريبات السيميائية، حيث وجد أنّ للانزياح أنواعا متعدّدة؛ أهمّها: "الانزياح البلاغيّ، والانزياح النّحويّ، والانزياح الوصفيّ، والانزياح الأسلوبيّ البلاغيّ في أصله السيميائيّ الزاهن"³²؛ فالانزياح الأسلوبيّ له صلة "باستعمال اللّغة، وتوظيفها في جمالية الإرسال ليس ضمن تركيب ألفاظ اللّغة في جمل فحسب، ولكن ضمن بناء الجمل نفسها في نسج الأسلوب الأدبيّ، والسّعي إلى تحصيله من الرّتبة والسّكون إلى الحركة والتّوتر"³³.

والمعنى المعجميّ للانزياح: "هو فعل الخطاب الذي ينزاح عن المعيار، وهو الكلمة التي تخرق السّلوک المتّفق عليه في الاستعمال بين النّاس"³⁴؛ والانزياح الأسلوبيّ Une stylistique de l'écart هو الذي "يعادل الأسلوب الأدبيّ الذي يتميّز بالخصوصيّة، ويتجانف عن المألوف المبتذل القائم على التّقليد، والمحاكاة ضمن نظام اللّغة العامّ في أيّ لسان من الألسن"³⁵.

فالانزياح صفة أسلوبية تجعل لغة الكاتب لغة ذات خصوصيّة في إطار النّظام العامّ للسان الذي تنتمي إليه، فهو ما يكسر به الرّتبة الأسلوبية إذ يظهر تعبيراً ينزاح به عن المألوف، فيجعل القارئ يتطلّع إلى ما وراء هذا الخرق الذي وقع في المعيار اللّغويّ؛ وقد مثّل عبد المالك مرتاض لما ذهب إليه بقول الحطيئة:

"دَعِ الْمُكَّارِمَ لَا تَرْحَلْ لِبُعْغِيَّتِهَا ، واقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي!"³⁶

فقد وقع توتير اللّغة حين قال الشّاعر: (واقعد فإنّك أنت الطّاعم الكاسي!)، حيث تمّ الخروج عن الدّلالة المعجميّة في نظامها المألوف في تصريف معانيها حين جعل الحطيئة مهجوه وكأنّه من كرمه وسخائه لم يزل يطعم النّاس ويقرّهم؛ ولكن في حقيقة الأمر وتّر اللّغة بجعله لمعنى اسم الفاعل يستحيل إلى معنى اسم المفعول توسعا وسخريّة "فلم يعدّ النّحو بإجراءاته المحدودة قادرا على فعل شيء أمام هذه البلاغة الطّافحة، فتوقفت وظيفته لدى الإعراب الذي لا يعني هنا إعراب المعاني بأيّ وجه"³⁷.

بهذا الانزياح الأسلوبيّ استطاع الشّاعر أن ينتقل بالكلام من نظام اللّسان الصّارم إلى نظام اللّغة المفتوح، ومن الدّلالة المعجميّة المتوازنة إلى الدّلالة الأدبيّة؛ "وقد

أصبح الانزياح في الأدب الجديد (وبخاصة الشّعر المعاصر) ضرباً من ضروب توظيف المجازات التشخيصيّة، وإيقار دلالات اللّغة الشّعريّة حتّى تغتدي محملة بها تحميلاً³⁸.

ب- مصطلح التّداوليّة (Pragmatique) :

إنّ تداولية اللّغة أدخلت ضمن الآليات الإجرائيّة في التّحليل السّيميائيّ بحيث إنّ الكلمة الّتي تقال يراد منها أكثر من معنى، وغالباً ما لا يراد بها إلّا المعنى الوارد في ظاهر الكلام، أو يتّخذ الكلام الوارد على الأقلّ قابليّة تأويليّة لتوليد كلام مسكوت عنه، "فكأن مبدأ المسكوت عنه هو مفتاح التّداوليّة اللّغويّة بالمفهوم المبسط"³⁹، حيث يرى (ديكرو) و(سشيفر) أنّ مفهوم مصطلح (التّداوليّة) هو "دراسة لكلّ ما ينصرف إلى معنى الملفظ تحرص على طبيعة الوضع الّذي يستعمل فيه الملفظ، وليس مجرد البنية اللّسانية للجملة"⁴⁰.

وكان للباحث عبد المالك مرتاض تعقيب عمّا تحدّث عنه المنظّران الغربيان بأنّ ما ذهباً إليه "موجود في الحقيقة في كلام العرب، وهو موجود في كلّ كلام...؛ كما مثّل به المنظّران الغربيان في قول قائل: "إني آت، فهل يراد به الإخبار بالإتيان؟ أو إلى إعلان موعد؟ أم إلى تقديم وعيد؟"⁴¹.

فقد قام عبد المالك مرتاض في بداية بحثه بتأثيل هذا المفهوم (التّداوليّة)، فوجد أنّه قد وظف بعدّة استعمالات في الثّقافة الغربيّة، ومنها: "قانونيّة (وهو الاستعمال الأصل فيما يبدو)، ثمّ فلسفيّة منطقية ورياضيّة، ثمّ أخيراً لسانيّة (دلاليّة) وبلاغيّة (سياقيّة)، وسيميائيّة (تأويليّة)"⁴².

ونشأ هذا المفهوم في أمريكا الشّماليّة أواخر القرن التّاسع عشر ميلادي من قبل الباحث (شارل بيرس)، ثمّ جاء بعده الباحث (وليام جيمس)، وطبّق هذا المبدأ على الدّيانة، ثمّ الفلسفة (نظريّة الحقيقة). وفي لسان العرب: التّداول هو: التّحاور على شيء، وأخذه بالدّول⁴³؛ بحيث يتمّ التّداول عليه، فكلّ مرّة يأخذه أحد من الآخر، وهو "تركيب لغويّ مستعمل في العاميات العربيّة بوجه صحيح إلى يومنا هذا"⁴⁴.

ولاحظ عبد المالك مرتاض أنّ "كتابات الغربيّين تهمل الإشارة إلى جهود العرب البلاغيّة، وغير البلاغيّة في حقل علوم اللّغة إمّا جهلا، وإمّا استخفافا، وإمّا مكابرة وتجاهلا"⁴⁵؛ حيث رأى أنّ هذا المفهوم قد تناوله البلاغيّون العرب القدامى الذين "كانوا يجتزئون بأنّ يطلقوا عليه 'السّياق'....، أو ما في حكمه، أو ما يطلق عليه السّكاكي (ت 626 هـ) 'مقتضى الحال'"⁴⁶.

فالإجراءات التّداولية تعنى أساسا بفهم الجملة الواحدة من الكلام، فتبحث عن طبيعة وضعها انطلاقا من العناصر المعجميّة إلى المؤشّرات النّظميّة، أو المعطيات السّياقيّة؛ فقد تحدّث (رولان بارث) عن مسألة تداوليّة اللّغة وتحليل الخطاب، فرأى أنّ العبارات الطّليّبة يمكن أن تتحوّل إلى عبارات خبريّة لكن دون أن تفقد طبيعتها الطّليّبة؛ مثل قول قائل: (لا تدخّن)، فإنّ صيغتها تعني بلغة تأديبيّة 'يمنع التدخين'، أو هنا 'لا يدخّن أحد'؛ والصّيغتان الثّانية والثالثة هما في الحقيقة تعكسان معنى الصّيغة الأولى "وهي صيغ يستعملها الباتّ للتأدّب مع المخاطب، فعوض أن ينهّاه عن التدخين هو شخصيا (بطريقة الأمر، والنهي) يعتمد إلى إخباره بأنّ التدخين حيث هو ممنوع"⁴⁷، ومثل هذه الخاصيّة (التي تتمتع بها هذه النظرية) تجعل منها أداة شديدة الفعالية لاستكشاف حقول من القراءة لا تنتهي.

خاتمة البحث:

في نهاية هذا البحث نخلص إلى عرض أهمّ الآليات الإجرائيّة التي تساعدنا على إيجاد مصطلحات بديلة عن المفاهيم الغربيّة المعاصرة، وحلّ الإشكالات المطروح بخصوص هذا الموضوع؛ فهي وسائل ضروريّة لإثراء اللّغة العربيّة وعصرنتها، حيث استنتجنا النّقاط التّالية :

- اشتقاق ألفاظ جديدة من أصول عربيّة، أو معرّبة.
- تضمين الكلمة العربيّة معنى جديدا غير معناها السّابق.
- تعريب كلمات أجنبيّة، واعتمادها بشكل رسميّ في كلّ المجالات المعرفيّة.

- البحث في التّراث العربيّ عن مصطلحات مناسبة للاستعمال الحديث للّغة، وإعادة بعثها من جديد.
 - تحميل الكلمات العربيّة المألوفة معاني جديدة بإطلاق ألفاظ مجازيّة عليها.
- ورغم كلّ الجهود المبذولة في هذا المجال، فإنّ اللّغة العربيّة لم تستفد كليّاً من تلك القدرات المتاحة لديها من أجل صياغة المصطلح، فالأمر لا يحتاج وقفات فرديّة فقط، بل إلى جهد يشترك فيه الجميع لاستنباط مصطلح نقديّ عربيّ أصيل، يتميز بصيغة واحدة، ويتّسم بدلالة واضحة؛ بحيث تكون له القدرة على مسaire المعطيات الإبداعية المعاصرة، وقد يحدث ذلك إذا تعاضدت جهود النّقاد واللّغويّين العرب، بغرض الوصول إلى بلورة مصطلحات نقدية؛ لعلّها تكون المخلّص من التّبعيّة الثقافيّة للغرب التي يعيشها المثقّف العربيّ عموماً.

الهوامش:

-
- ¹ - عبد السلام المسدي ، ازدواج والمماثلة في المصطلح النقدي ، ص : 44 .
 - ² - السيوطي ، المزهري ، ج 1 / ص : 59 .
 - ³ - عبد السلام المسدي ، ازدواج والمماثلة في المصطلح النقدي ، ص : 44 .
 - ⁴ - الفاسي الفهري ، اللسانيات واللغة العربية ، ص : 406 .
 - ⁵ - ينظر عبد المالك مرتاض ، السمة والسمائية ، مجلة تجليات الحداثة ، جامعة وهران - الجزائر ، 1993م ، ع 2 ، ص : 15 .
 - ⁶ - السيد أحمد الهاشمي ، جواهر البلاغة ، المكتبة العصرية ، بيروت - بنان ، 2003م ، ص : 309 . * - سورة الحشر ، الآية : 19 .
 - ⁷ - المرجع السابق ، ص : 309 .
 - ⁸ - عبد المالك مرتاض ، الأدب الجزائري القديم ، دار هومة ، الجزائر ، 2001م ، ص : 120 .
 - ⁹ - عبد المالك مرتاض ، مقامات السيوطي - منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق - سوريا ، 1996 ، ص : 44 .
 - ¹⁰ - مولاي علي بوخاتم ، الدرس السيميائي المغاربي ، ص : 131 .

- ¹¹ - عبد المالك مرتاض، شعرية القصيدة - قصيدة القراءة ، تحليل مركب لقصيدة أشجان يمانية، دار المنتخب العربي، بيروت - لبنان، 1994م، ص: 24.
- ¹² - المرجع السابق ، ص: 33.
- ¹³ - عبد الملك مرتاض، تحليل الخطاب السردي ، م س ، ص: 145.
- ¹⁴ - المرجع السابق ، ص: 147.
- ¹⁵ - عبد المالك مرتاض، شعرية القصيدة - قصيدة القراءة ، ص: 43.
- ¹⁶ - عبد المالك مرتاض، تحليل الخطاب السردي، ص: 161.
- ¹⁷ - عبد المالك مرتاض، شعرية القصيدة - قصيدة القراءة ، ص: 37.
- ¹⁸ - عبد الملك مرتاض، مقامات السيوطي، م س، ص: 43.
- ¹⁹ - ينظر عبد السلام المسدي، الازدواج والمماثلة في المصطلح النقدي - النموذج ، الشعرية والسيمائية، ص: 36.
- ²⁰ - ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء ، ج 1/ ص: 97.
- ²¹ - ينظر مولاي علي بوخاتم، المصطلح والمصطلحية الجهود والطرائقية، ص: 110.
- ²² - المرجع السابق ، ص: 60.
- ²³ - عبد الله القدامي ، مجلة العربي ، ع 451 ، الكويت 1986م ، ص: 106.
- ²⁴ - عبد السلام المسدي ، الازدواج والمماثلة في المصطلح النقدي ، م س ، ص: 35 - 36.
- ²⁵ - ينظر عبد المالك مرتاض، مفاهيم سيمائية بمصطلحات بلاغية، م س ، ص: 05.
- ²⁶ - عبد المالك مرتاض، ألف ليلة وليلة - تحليل سيميائي تفكيكي- لحكاية حمال بغداد، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص: 96.
- ²⁷ - عبد المالك مرتاض، مفاهيم سيميائية بمصطلحات بلاغية، م س ، ص: 04.
- ²⁸ - عبد السلام المسدي، الأسلوب والأسلوبية، الدار العربية للكتاب، تونس 1977م ، ص: 158.
- ²⁹ - عبد المالك مرتاض، مفاهيم سيميائية بمصطلحات بلاغية، ص: 05.
- ³⁰ - الزمخشري، الكشف عن حقائق غوامض التزليل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، ص: 441.
- ³¹ - عبد المالك مرتاض، مفاهيم سيميائية بمصطلحات بلاغية ، ص: 06.
- ³² - المرجع السابق ، ص: 06.
- ³³ - المرجع السابق نفسه ، ص: 06.

³⁴ - Hachette ,dictionnaire de la langue française , (écart) .

³⁵ - عبد المالك مرتاض، مفاهيم سيميائية بمصطلحات بلاغية ، م س ، ص : 06 .

³⁶ - بن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، تح أحمد أمين وآخرون، القاهرة- مصر 1949م ، ج 1 / ص : 19 .

³⁷ - عبد المالك مرتاض، مفاهيم سيميائية بمصطلحات بلاغية ، م س ، ص : 07 .

³⁸ - المرجع السابق ، ص : 08 .

³⁹ - المرجع السابق نفسه ، ص : 17 .

⁴⁰ - C. Ducrot , J . M . Schaefer , dictionnaire encyclopédique des sciences du langage , Seuil , Paris , p : 132 .

⁴¹ - عبد المالك مرتاض، مفاهيم سيميائية بمصطلحات بلاغية ، م س ، ص : 22 .

⁴² - المرجع السابق، ص : 09 .

⁴³ - ابن منظور، لسان العرب ، م س ، مادة (مول) .

⁴⁴ - عبد المالك مرتاض، مفاهيم سيميائية بمصطلحات بلاغية ، م س ، ص : 10 .

⁴⁵ - المرجع السابق ، ص : 21 .

⁴⁶ - المرجع السابق نفسه ، ص : 14 .

⁴⁷ - المرجع السابق ، ص : 25 .